محاولات التأصيل النقدي للأشكال القصصية القصيرة في المنجز القصصي الجزائري

عبد المجيد العتري
جامعة حمة لخضر– وادي سوف– الجزائر

مقدمة :

لم يكن المشهد الأدبي والنقدي في الجزائر أثناء الفترة الاستعمارية بمنأى عن التقليد ، إذ لا يمكن الحديث عن أيّ منجز نقدي يذكر في تلك الفترة إلَّا ما كان نزرا قليلا ، من خلال بعض المقولات الحكمية القيمية البسيطة ، التي كانت تبث في بعض الصحف الإصلاحية ، حيث ارتبط النقد في بدايته بالحركة الإصلاحية بنشر الوعي ومحاربة الجهل ؛ فكان نقدا أخلاقيا بامتياز، وقد عملت النخبة الجزائرية المثقفة على مواكبة هذا الدور بالمشاركة في الجمعيات الثقافية والنوادي العلمية لمواجهة الغطرسة الاستعمارية بجميع أشكالها .

ما يمكن أن يقال عن النقد الأدبي الجزائري أنَّه قد عرف تأخرا كبيرا لاعتبارات عديدة ، إذ " إنَّ النشاط الأدبي في الجزائر إلى غاية العشرينيات من القرن العشرين ، كان في البداية نشاطا ضعيفا شكلا ومضمونا ؛ ولكن عندما أخذ الأدب في النمو والتطور والتجدد ، وهذا من بداية العقد الثالث من ذلك القرن ، أخذ النقد في الظهور شيئا فشيئا ، وهو أمر منطقي وواقعي ، لأن الأعمال الأدبية تسبق الأعمال النقدية " 1 ، وكلُّ الأشكال النثرية التي ظهرت على الساحة الأدبية في تلك الفترة كانت تقليدية، يعوزها البناء الفني وتطغى عليها اللغة التقليدية التي تميل إلى الصنعة والتكلف غالبا .

تعتبر القصة القصيرة من الأشكال القصصية النثرية التي ظهرت على الساحة الأدبية الجزائرية ، ولو أنَّ ظهورها كان متأخرا بسبب ظروف الاستعمار وقلَّة الاهتمام بهذا الشكل الفني من طرف العديد من الكتاب الأوائل لا سيما أولئك المنشغلين بالإصلاح ، وانعدام الاتصال بأعلام هذا الفن في بلاد المشرق إلَّا ما ندر ، فما هي الجذور الأولى للأشكال القصصية القصيرة في الجزائر ؟ ، وكيف كانت محاولات التأصيل النقدي المرافقة لها ؟ ، وهل نجح النقد الأدبي في الجزائر في هذه المهمَّة ؟ .

1ـ الإرهاصات الأولى للنقد الأدبي في الجزائر :

يتفق جميع الباحثين على أن النقد الأدبي في الجزائر قد ظهر متأخرا ، حيث كان سطحيا بسيطا يفتقر إلى الموضوعية والعلمية ، ويتَّسم بالجزئية والانطباعية ـ على عادة النقد العربي القديم أيام تشكُّله ـ حيث ظهر في شكل خطابات سياسية إصلاحية قادها أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مثل الإمام ابن باديس و الشيخ محمد البشير الإبراهيمي و أحمد توفيق المدني وغيرهم ، وفي الحقيقة " أن النقد الأدبي الجزائري الحديث قد ظهر متأخرا نسبيًّا .وأنه لم يكن ناضجا في بداية نشأته . بل في عمومه اتَّسم بالسَّطحيَّة والنظرة الجزئية ، واحتاج إلى سنوات ليستوي على ساقه ، فهناك من يعده مجرد تجزيئية أو تصحيحا لأخطاء لغوية وصرفية ونحوية وعروضية " 2 ،فقد كان بعض النقاد يركزون اهتمامهم على تصويب الأخطاء اللغوية و النحوية أ و الكشف عن مظاهر الجودة عند هذا الأديب أو ذاك ، وهو مفهوم نقدي تقليدي ، ولعلَّ حالة الضعف التي لحقت بالنَّقد كانت بسبب ضعف الأدب ،

أ ـ عوامل تأخر النقد الأدبي الجزائري

من أبرز الأسباب التي أدَّت إلى هذا التَّأخر على المستويين الإبداعي والنقدي في الأدب الجزائري الحديث :ـ محاربة الاستعمار الفرنسي للثقافة العربية في الجزائر وسعيه إلى تجهيل الشعب وفصله عن امتداده الحضاري .

ـ غلبة الاتجاه التقليدي الذي ركَّز اهتمامه على الجانب الإصلاحي ، ولم يسترعه الإبداع الأدبي و لا العمل النقدي .

ـ محدودية دور الصحافة الوطنية وعدم اهتمامها بالأعمال الأدبية والنقدية ، وتركيزها على المقال الصحفي ذي الطابع السياسي الإصلاحي والديني .

ب ـ مرا ل تطور النقد الأدبي في الجزائر

عرف النقد الأدبي في الجزائر ثلاث مراحل أساسية في مسيرته نحو التَّجلِّي والبروز على السَّاحة النقدية العربية والعالمية، وهي :

ـ المرحلة الأولى :

وتمتد من القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب العالمية الأولى ، وفيها كانت النظرة إلى النقد نظرة سطحية تقليدية ، تغلب عليها الأحكام التأثرية ذات الغاية الإصلاحية في عمومها ، ومن أبرز نقاد هذه الفترة : أبو القاسم الحفناوي و عبد القادر المجاوي ومحمد بن أبي شنب ومحمود كحول ، الذين حاولوا أن يؤصِّلوا للنَّقد الأدبي في الجزائر من خلال مقالاتهم التي كانوا ينشرونها في الصُّحف الوطنية .

ـ المرحلة الثانية :

تمتدُّ هذه المرحلة من أوائل العشرينات إلى قيام الحرب العالمية الثانية ، وفيها تجلت نظرة جديدة إلى الأدب ووظيفته ، إلَّا أنَّ هذه " النظرة التقدُّميَّة حول النَّقد والشعر لم تستمر ولم تجد لها صدى في نفوس الأدباء لأسباب كثيرة ، منها أنَّ الشُّعراء والنقاد كانوا من المحافظين ، ومن رجال الدين المصلحين ، ثم إنَّ التقاليد النقديَّة لم تترسَّخ في البيئة الأدبية الجزائرية " 3 ، وبذلك برز كتاب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وفي مقدمتهم الشيخ عبد الحميد بن باديس ، الذي سلك مسلكا تربويا إصلاحيا في نقده ، غلبت عليه الذاتية والانفعالية ، أمَّا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فقد خاض في مجال النقد الأدبي من خلال آرائه الصحفية التي كان يوجهها إلى الكتاب والشعراء ، ويقيم أعمالهم ويبدي ملاحظاته حولها ؛ فكانت محاولات للتأصيل النقدي على الرغم ممَّا اتسمت به من العفويَّة والتَّقريريَّة والبساطة .

ـ المرحلة الثَّالثة :

وتمتد هذه المرحلة من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى ما بعد الاستقلال، وفيها عرف هذا النقد شيئا من التَّحرر من الانطباعية والتقليد ؛ ومال النقاد إلى تمثل مبادئ المذاهب الأدبية ونظرياتها النقدية مثل الرومانسية والواقعية ، وقد غلبت على نقاد هذه المرحلة الكتابات الأكاديمية الجامعية ، مثلما نجد ذلك عند أبي القاسم سعد الله وعبد الله الركيبي و محمد مصايف ، وغيرهم من الأساتذة " الذين حملوا على عاتقهم التطبيق والاكتفاء من اجترار التنظير " 4 .

2ـ نشأة الأشكال القصصية القصيرة في الأدب الجزائري ومراحل تطورها :

أ ـ نشأة القصَّة القصيرة الجزائريَّة :

لقد كان ظهور فن القصَّة القصيرة في الجزائر متأخرا مقارنة ببلاد المشرق لأسباب موضوعية ، منها ظروف الاستعمار والانعزال السياسي والثقافي الذي فرضه على الشعب الجزائري عموما والفئة المثقفة على وجه الخصوص ، حيث عمل هذا الأخير على شلِّ الثقافة الوطنية ومحاصرة اللغة العربية بهدف القضاء عليها ، وقد اختلف أكثر الدارسين للفنون النثرية في الجزائر حول البدايات الأولى للأشكال القصصية القصيرة ؛ فالدكتور عمر بن قينة يرى أنها تعود إلى سنة 1908 ، بينما يرجعها

الدكتور عبد الملك مرتاض إلى سنة 1925 ، حين ظهرت قصة " فرانسوا والرشيد " لمحمد السعيد الزاهري التي يعتبرها فاتحة القص الجزائري ، ويعدُّها أول محاولة قصصية واضحة المعالم يعرفها النثر الجزائري الحديث ، وهو يعبر عن ذلك بقوله : " إنَّ أول محاولة قصصية عرفها النثر الحديث في الجزائر ؛ تلك القصة المثيرة التي نشرت في جريدة الجزائر " 5 .

وتحدد عايدة أديب بامية سنة 1926 كبداية لميلاد القصة القصيرة في الجزائر ، من خلال قصة " دمعة على البؤساء " لعلي بكر السلامي والتي نشرتها جريدة الشهاب في عدديها الصادرين يومي 18 و28 أكتوبر سنة 1926 م 6 ، أما الدكتور عبد الله الركيبي فيرى أنها " لم تظهر إلَّا بعد الحرب العالمية الثانية ، وما ظهر قبل هذا التاريخ إنما كان مقالا قصصيا أو صورة قصصية " 7 ، وعن ظروف وملابسات تأخر ظهورها يقول : " نشأت القصة القصيرة الجزائرية متأخرة بالنسبة إلى القصة في العالم العربي ، نتيجة وضع خاص وظروف عرفتها الجزائر دون غيرها من الأقطار العربية ، وقد أحاطت هذه الظروف بالثقافة العربية في الجزائر فأخرت نشأة القصة " 8

وقد كان الاستعمار الفرنسي السبب الأول والمباشر في هذا التأخر الذي عانته الثقافة في الجزائر والفنون النثرية تحديدا، إذْ لم يكن " بإمكان القصة الجزائرية أن تولد وتنمو ولادة ونموا طبيعيين في بلد صبَّ فيه الاستعمار على اللغة العربية والثقافة العربية كل ما في جعبته من وسائل الضغط والقهر لمحوها والقضاء عليها ، لهذا كان طبيعيا أن تتعثَّر القصة في نشأتها وتطوُّرها " 9 ، أمَّا الدكتور صالح خرفي فيرى أنَّ محمد بن العابد الجلالي هو صاحب الريادة في كتابة القصة الجزائرية القصيرة حيث أنَّه " أوَّل من كتب القصَّة العربية في الجزائر " 10 ، فقد كان يكتب قصصه القصيرة وينشرها باسم مستعار في مجلة الشِّهاب الباديسية بداية من سنة 1935م ومن أشهرها : " السعادة البتراء" و" الصائد في الفخ " .

ظهرت بين الحربين العالميتين حركات سياسية وطنية إصلاحية تدعو إلى العودة إلى الموروث الفكري والثقافي العربي والتمسك باللغة العربية والدين الإسلامي في مواجهة الفرنسة بجميع أشكالها ؛ فجاءت جمعية العلماء التي بذلت جهودا كبيرة في الإصلاح ونشر الوعي بين الجزائريين ،فعملت على إحياء الثقافة العربية الإسلامية واسترداد مكانة اللغة العربية ؛ فانطلق الكتاب في تجسيد هذه الجهود في أشكال قصصية مختلفة ، تغبِّر عن واقع الشعب الجزائري رغم محدوديتها الفنية .

أمَّا القصة القصيرة التي كتبت باللغة الفرنسية فقد ولدت مع الثورة التحريرية ؛ حيث ظهرت منها عدَّة نماذج قصصية " اتَّجهت إلى واقع الشعب وإلى التعبير عن نضاله وآماله ، وكذا تصوير الظروف القاسية التي كان يعاني منها ، وهذا بسبب السيطرة الاستعمارية ، هذا وقد تأثرت القصة باتجاهات القصة في فرنسا ، وبدا ذلك واضحا في بعض أعمال محمد ديب " . 11

وعموما فإنَّ القصَّة القصيرة في الجزائر " لم تظهر في واقع الأمر بصفتها شكلا أدبيًّا فنيًّا يفرض وجوده إلَّا ابتداء من بعض محاولات الأديب المعروف رضا حوحو الذي بدأ يكتب في الثَّلاثينات من القرن العشرين "12 ، حيث أعطاها مكانة خاصة ورسَّخ وجودها في فضاء الفنون القصصية ، فهو يعرف بأفكاره التَّحررية والإصلاحية وحبِّه لوطنه واستماتته في الدِّفاع عنه من خلال أعماله القصصية المتميزة ، وفي مقدِّمتها قصَّته الشَّهيرة " مع الحمار الحكيم " .

ومع هذا الاختلاف الحاصل في تحديد البداية الفعلية للقصة القصيرة الجزائرية فإنَّنا نقول أنَّ هذا الشكل القصصي قد ساهم مساهمة فعالة في التأصيل الفني للقصة الجزائرية منذ مطلع القرن العشرين من خلال تلك المحاولات القصصية القصيرة التي تناقلتها الصحف الوطنية والعربية ، ولذلك لا يحق لأي أحد أنْ ينكر ما لتلك المحاولات من دور ريادي في إيجاد الفن القصصي ، وخصوصا في فترة الثورة التحريرية وما بعدها ، حيث انتشر الوعي بأهمية هذه الفنون القصصية في نقل المعاناة وزاد الإقبال على تذوقها والتفاعل مع موضوعاتها وأساليبها الفنية ،

ب ـ عوامل ظهور فن القصة القصيرة في الجزائر :

من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور القصة القصيرة في الأدب الجزائري الحديث :

1ـ اهتمام الحركة الوطنية والتيارات الإصلاحية بالأدب والثقافة إلى جانب اهتمامها بالعمل السياسي . باعتبار أنَّ النشاط الأدبي بمختلف أشكاله يعدُّ وسيلة للنضال السياسي .

2ـ الدور الفعال الذي لعبته الصحافة حينما شجعت الإبداع الأدبي والنشاط الثَّقافي ، وخصوصا عندما قامت الصحف الجزائرية بنشر المحاولات القصصية الأولى ؛ وفي مقدمتها جريدة " المبشر " التي لعبت دورا هاما في الترويج للمنجز القصصي الجزائري الأول ، وفي ذلك يقول الدكتور عبد الملك مرتاض : " إنَّ من يدرس النهضة الأدبية والثقافية المعاصرة في الجزائر بوجه عام ، لن يجد محيصا من أن يقرَّ بأنَّ الصحافة العربية كانت ذات أثر بعيد على إذكاء النهضة الأدبية في الجزائر و إغنائها " 13.

3ـ ازدهار فن المقال واعتماد كتابه على الجمع بينه وبين القصة القصيرة في مرحلة من مراحل تطورها .

4 ـ تأثُّر الكتاب الجزائريين بالكتابات القصصية القصيرة في المشرق من خلال زياراتهم إلى بلاد المشرق كابن باديس والإبراهيمي وأحمد رضا حوحو وغيرهم ، ونشرهم لأعمالهم في الصحف والمجلات المشرقية كمصر وسوريا .

5ـ كثرة السير الشعبية والقصص البطولية والدينية وتداولها بين فئة المثقفين ، الأمر الذي ساهم في تشكيل النواة الأولى للقصة القصيرة وتطويرها ، " فالقصة الشعبية الجزائرية على اختلاف مضامينها وأساليبها وأشكالها ، لعبت دورا واضحا في ملء الفراغ الأدبي في فترة ضعف فيها الأدب العربي ، كما أنَّها عبَّرت عن روح الشعب الجزائري وتعلُّقه بماضيه ودفاعه عن وجوده وكيانه " 14 .

ج ـ مراحل تطور القصّة القصيرة في الجزائر :

تعدُّ القصَّة القصيرة من أكثر الأشكال الأدبية تطورا وتجددا ؛ " انطلاقا من شكلها التقليدي لدى اليونان ذي الطابع الأسطوري الحافل بالماورائيات والمغامرات الشائقة والغرائب الخارقة ، والعامر بالسِّحر والغيبيات والمبنيّ على حدث بسيط يتسارع وينمو بشكل كرونولوجي مسطَّح يتكون من بداية ووسط ونهاية ، من هذا الشكل في صورته الأولى والذي أدَّى إلى ظهور النثر القصصي اليوناني ومن بعده الروماني " 15 ، إلى أشكالها المتعددة التي تسمى بها اليوم .

يرجع هذا التطور الذي ميّز القصة القصيرة عبر عصورها المختلفة إلى قدرتها الفائقة على استنطاق الواقع الإنساني المتناقض ، واستيعاب قضاياه المختلفة وسبر أغواره التاريخية والنفسية والاجتماعية ، فقد تمكنت القصة القصيرة من تجسيد واقع الفرد ومجتمعه ؛ فكانت وسيلة أساسية للواقعيين للتعبير عن أفكارهم ورسم رؤاهم النفسية وخصوصا في البلدان التي ذاقت العسف والاحتلال ،

وفي الجزائر صوَّرت القصة القصيرة الواقع الجزائري بجميع تجلياته ومراحله التاريخية ، شأنها في ذلك شأن كل الفنون الأدبية التي تتأثر بالواقع وتؤثّر فيه ، حيث جسَّدت الكثير من مظاهر الحياة في هذه البلاد عبر جميع مراحل تطورها ، مرافقة في ذلك لرغبات الناس المختلفة . وخصوصا أثناء الثورة التحريرية إذِ قدَّمت أقاصيص الكتاب الجزائريين صورا ناصعة عن نضال الشعب الجزائري من أجل انتزاع حريته ، فقد رسمت بفنيتها قداسة هذه الثورة وصمود هذا الشعب .

يرى أكثر دارسي ونقاد الفن القصصي أنَّ القصة القصيرة في الجزائر قد انتهجت خمس مراحل حتى بلغت شكلها الذي هي عليه اليوم ، ومن هؤلاء عبد الله الركيبي وعبد الله بن حليّ ، وهي :

1ـ مرحلة المقال القصصي :

وهي مرحلة تميزت بالوصف وتصوير الواقع بموضوعية ، شخصياتها ثابتة غايتها إصلاحية إرشادية تبعا للظروف التي كانت سائدة أثناء تلك الفترة ، ارتبطت بالحكاية والمقامة فكانت بذلك قاصرة فنِّيًّا ، يفتقر كتابها إلى الآليات الفنية التي تمكنهم من الضبط والإحكام " ويعدُّ المقال القصصي الشكل البدائي الأول الذي بدأت به القصة القصيرة في الجزائر ، وقد تطور عن المقال الأدبي ، بل تطور عن المقال الإصلاحي بالدرجة الأولى ؛ فإذا كان المقال القصصي هو البذرة الأولى لبداية القصة فإنَّ

الصورة القصصية هي البداية الحقيقية للقصة الفنية الجزائرية القصيرة " 16 ، ومن أبرز المقالات القصصية المقالة المعنونة ب " المناظرة بين العلم والجهل " التي كتبها محمد بن عبد الرحمن الدِّيسي سنة 1908 .

2ـ مرحلة الصورة القصصية :

وهي مرحلة اتسمت عموما برسم حدث الأقصوصة بطريقة مسطحة بعيدة عن الإيحاء خلال عملية السرد القصصي ، سيطر عليها أسلوب الوعظ والاستطراد في ذكر الجزئيات والتفاصيل والابتعاد عن الواقع ، وقد تجلَّت في صور محمد السعيد الزاهري القصصية التي تضمنها كتابه " الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير " سنة 1928 ، وأول صورة قصصية في هذا الكتاب هي صورة " عائشة " .

3ـ مرحلة القصة الاجتماعية :

وهي المرحلة التي حاول فيها الكتاب التخلص من الرومانسية والاندماج في الواقعية من خلال رسم صورة المجتمع الجزائري وتصوير معاناته اليومية ، كل ذلك بسبب " اليقظة الوطنية التي عمت البلاد قبل اندلاع الثورة ، وتطور المفهوم الأدبي ، وقيام الثورة المسلحة " 17 ، وأبرز من مثَّل هذه المرحلة أحمد رضا حوحو وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار .

4ـ مرحلة القصة القصيرة المكتوبة في الخارج :

ويقصد بها تلك القصص القصيرة التي كتبها أصحابها خارج الوطن ، من خلال احتكاكهم بغيرهم من الكتاب وخاصة العرب في تونس ومصر وسوريا ، ولا نستثني أولئك الذين كانوا يكتبون بالفرنسية مكن ، حيث كان الاحتكاك بالثقافات الأخرى والتأثر بها والاستفادة منها ، كما تمكن بعضهم من نشر قصصه في تلك البلدان مثل أحمد رضا حوحو .

5ـ مرحلة القصة الاجتماعية / السياسية :

وهي المرحلة التي تزامنت مع الثورة التحريرية واستمرت بعد الاستقلال ، وفيها عرفت القصة القصيرة الجزائرية نضجها الفني عل يد كوكبة من الكتاب المتميزين باللغتين العربية والفرنسية ، ومنهم مرزاق بقطاش وبن هدوقة ومالك حداد وغيرهم

3ـ النقد الأدبي المزامن لنشأة الأشكال القصصية القصيرة في الجزائر :

ركَّز بعض النقاد اهتمامهم النقدي على المنجز القصصي الجزائري ، مستلهمين رؤيتهم النقدية من الواقع الذي كان عليه النقد في الجزائر ، حيث كان في منطلقه الأول بسيطا سطحيا ثمَّ مال بعد ذلك إلى الانطباعية لمَّا ارتبط بالاتجاهين الرومانسي ثمَّ الواقعي ، ومن النقاد الجزائريين الذين حاولوا التَّأصيل للقصَّة القصيرة في الجزائر بجميع أشكالها التي عرفت بها مثل الصورة القصصية والمقال القصصي والقصة الاجتماعية والسياسية عبد الله الركيبي الذي كانت له آراء نقدية تضمنها كتابه " القصة الجزائرية القصيرة " ، وعبد الملك مرتاض الذي كتب عدة مقالات نقدية في الفنون القصصية في الأدب الجزائري ،ومحمد مصايف الذي تناول العديد من الألوان النثرية بالدراسة والتحليل .

أ ـ الرؤية النقدية للأشكال القصصية القصيرة في الجزائرعند عبد الله الركيبي :

ينسب عبد الله الركيبي القصة القصيرة في الجزائر من حيث نشأتها الأولى إلى المقال القصصي والصورة القصصية والقصة الفنية ، ويرى أنَّ المقال القصصي هو تطوير عن المقال الأدبي ذي الطابع الإصلاحي ، ذلك " أنَّ الوظيفة التي وجد من أجلها المقال القصصي هي الوظيفة التي قام بها المقال الأدبي والمقال الديني الإصلاحي ، وارتباط الحياة الأدبية بالحركة الإصلاحية هو الذي جعل المقال القصصي يسير في خطِّها ، فلم يكن الدَّافع إلى كتاباته دافعا فنِّيًّا بقدر ما كان الدافع خدمة الفكرة والدعوة الإصلاحية أو التبشير على حدِّ اصطلاح محمد السعيد الزَّاهري " 18 .

كما يرى أنّ المقال القصصي هو شكلها الأول ؛ الذي يعدُّ " مزيجا من عدَّة أنواع أدبية هي المقامة والرواية و المقالة الأدبية ، بأنَّه تأثَّر بشكل مباشر بالمقال الذي عرف ازدهارا كبيرا على يد رجال الحركة الإصلاحية مثل : ابن باديس ، البشير الإبراهيمي ، الطيب العقبي ، مبارك الميلي ... وغيرهم ؛ فالشكل الذي جاء عليه المقال القصصي لا يعدو أنْ يكون صورة بدائيَّة للقصة ،

ذلك أنَّ العناصر الفنِّيَّة فيه غير منضبطة بقواعد هذا الفن تماما كطول الزمن فيه ، والذي قد يمتدُّ لشهور عديدة ، وتنوع عنصر البيئة وحشد الأفكار الكثيرة والاستشهادات العديدة وبثِّ الحكم والإقناع في النَّصِّ " 19.

والمقال القصصي ـ في حقيقته ـ هو صورة من المقال الإصلاحي الديني في مضمونه ووظيفته ، ولم يكن الدافع إليه أدبيا فنِّيًّا ؛ بل كان دعويا إصلاحيا حيث كان التركيز فيه على الدعوة إلى الدين والتَّمسُّك به ، والابتعاد عن الخرافات والأوهام والبدع ،وقد اتَّخذه أعلام الإصلاح وسيلة لتوعية الناس وإرشادهم ، ولذلك ارتبط ظهوره بالحركة الإصلاحية وعلى رأسها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، أمَّا فنِّيًّا فلا يكاد يتَّصف بأدنى سمة من سمات القصَّة القصيرة مثل : رسم ملامح الشخصية والربط المنطقي بين تفاصيل الحدث ، إذْ كان التركيز فيه على عنصري السرد والحوار إلى جانب الفكرة .

عرف هذا الشكل القصصي ـ المقال القصصي ـ بعد الحرب العالمية الثانية نوعا من التطور من حيث مضمونه حتى قيام الثورة التحريرية من خلال انتقاد الكتاب لكل مظاهر الحياة الاجتماعية السيئة التي كانت عائقا أمام تطوير المجتمع الجزائري ، ومن حيث شكله فقد أحدث الكتاب فيه طفرة غير معهودة في اللغة والأسلوب

أمَّا الصورة القصصية ـ حسب رأيه ـ فقد كان دورها واضحا يتمثَّل في ملء الفراغ الأدبي لدى الأدباء الجزائريين في تلك الفترة بمعالجة موضوعات ترتبط بظروف الشعب ، " فقد سجَّلها الكتاب في صور قصصية كنقد الواقع ومعالجته ، وإنْ لم تعتمد على المعالجة الفنية التي تتطلَّبها القصة القصيرة ، فهي شكل من أشكالها ، وإنْ كانت شكلا لم ينضج بعد " 20 ، كما يرى أنَّها تتَّسم ببعض الملامح التي يمكن حصرها فيما يلي 21 :

ـ ترسم الحدث كما هو .

ـ ترسم الشخصية في ذاتها بطريقة لا تتفاعل فيها مع الحدث .

ـ الحوار فيها يعبر عن أفكار الكاتب ولا يرتبط بالشخصية القصصية .

ـ عدم التركيز في ذكر تفاصيل الحدث.

ـ اختفاء الإيحاء في عنصر السرد .

ـ عدم تحليل الواقع .

ـ الأسلوب المسترسل والجمل الطويلة .

ومن أمثلتها قصَّة " الكتاب الممزَّق " لمحمد السعيد الزاهري وهي صورة قصصية تحكي حوارا جرى بين كاتبة فرنسية تدعو إلى السُّفور وتحرُّر المرأة وبين امرأة جزائرية محجبة ، ومن بين ما جاء على لسان المرأة الجزائرية قولها : " إنّني مكبَّة اليوم على تأليف كتاب في نصرة الحجاب " 22 ،وهذا الحوار يعبر عن فكر الكاتب وقناعته ، يخلو من البناء القصصي المحكم .

ومهما يكن من أمر الصورة القصصية فإنَّها قد ظلَّت مفكَّكة بعيدة عن الضبط والتركيز ، لا ترسم الشخصية ولا تعبر عنها ولا تحلل الواقع كما ينبغي أنْ يحلَّل في أيِّ عمل قصصي ، وظلَّ المقال القصصي راسخا فيها بسرده وأسلوبه التقريري، إلَّا أنَّ الحوار أخذ يميل إلى البساطة والعفوية وخصوصا في الفترة التي سبقت قيام الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك يمكننا القول أنَّ الصورة القصصية كانت أساسا لتشكيل القصة القصيرة التي عرفت فيما بعد تغييرات كثيرة على مستوى الأشكال والمضامين لاعتبارات سياسية و أخرى اجتماعية ،

أمَّا القصة القصيرة الفنية التي تمثل البناء الفني المتكامل للصورة القصصية فهي لم تتبلور إلَّا بعد مرورها بالشكلين السابقين ، " وقد استمرَّ هذا التَّهيُّؤ الفني إلى مشارف الخمسينيات حيث اتَّضحت معالم القصة الفنية ، وذلك بتأثير من تطور الحركة الأدبية الجزائرية وتراكم الخبرات الأدبية لدى الأدباء أنفسهم ، واطِّلاعهم على نماذج القصة الفنية " 23 ، فهي لم تتطور بشكل مفاجئ ، وإنَّما عرفت التطور شيئا فشيئا ، وهذا ما يفسِّر تداخلها الكبير مع الصورة القصصية ، فقد علقت بها

في بدايتها بعض سماتها مثل ضعف الحوار وعدم ارتباطه بالشخصية القصصية ، وبروز ذاتية الكاتب من خلال تعبيره عن نفسه .

لقد عمل عبد الله الركيبي من خلال كتابه (القصة الجزائرية القصيرة) التَّأصيل للأشكال القصصية القصيرة ، حيث تناول فيه بالدراسة تاريخ القصة القصيرة في الجزائر في الفترة الممتدَّة من 1928 إلى الاستقلال ، وما يذكر هنا أنَّه استحدث مصطلحين سرديين هامين في دراسة الفنون السردية وهما : المقال القصصي والصورة القصصية .

ب ـ الرؤية النقدية للأشكال القصصية القصيرة في الجزائر عند عمر بن قينة :

يعدُّ الناقد الجزائري عمر بن قينة من الأسماء التي أسهمت في دراسة الفنون القصصية في الأدب الجزائري والتَّأصيل لها، من خلال كتابه النقدي (دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة)، وفيه تناول عدَّة قضايا نقدية من خلال بعض النماذج القصصية لكتاب جزائريين ، وهو يرى أنَّ القصة الفنية الحقيقية ارتبط ظهورها بالثورة التحريرية ، فالقصة الفنية الناضجة خاصَّة تلك المكتوبة باللغة العربية " قد ولدت مع الثورة التحريرية الجزائرية في 1954 ، لأنَّ الثورة كانت الحلم العذب الذي طالما راود النفوس واعتمل في الأفئدة حتى من خلال حكايات الجدَّات عن بطولات علي وعنترة ؛ فتطلَّع المواطن إلى ذلك اليوم الذي يبرز فيه البطل لدحر الظالمين وإذاعة الحق في الأرجاء ... " 24 ، ومع ذلك فهو يقر بوجود أشكال ونماذج قصصية قصيرة قبل هذا التَّاريخ .

لم يكتف الناقد عمر بن قينة في كتابه المذكور بالجانب النظري ، " بل اهتم كذلك بالجانب التطبيقي ، حيث درس مجموعة من النصوص القصصية القصيرة محاولا التعرف على اتجاهات القصة القصيرة التي ظهرت في فترة الاستعمار ، فقد درس المجموعة القصصية لأحمد منور " الصداع " وفيها كشف عن اتجاهها الإنساني حيث تجلت فيها المضامين الوطنية والاجتماعية والإنسانية ، ولم يقتصر على أقصوصة واحدة بل تتبع جميع قصص المجموعة بالتلخيص لحدثها وتفسير مستوى التعبير لكل شخصية فيها ؛ فشخصية الأم في في قصة " عودة الأم " رمز للعربية التي عمل الاستعمار الفرنسي على محوها من نفوس الجزائريين ، وفسَّر تفرُّق أبنائها بالتَّمزُّق اللُّغوي أو اللَّهجي للجزائريين " 25 ، و أمَّا الشخصية في قصة " قلبتان من شعير" فهي تصوِّر معاناة المواطن الريفي في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر الذي سلبت منه أرضه و بقي يعاني أمام جبروت المستعمر المتغطرس .

لم يقتصر الناقد ابن قينة في نقده لهذه المجموعة القصصية على تحليل المضمون القصصي ، بل كان يبدي مواقفه ويصدر أحكامه النقدية من خلال الإشارة إلى النقائص الفنية و السقطات اللغوية والقصور الفني ، حيث اعتبر قصة " اجتياز خط موريس " أشبه بالتحقيق الصُّحفي ، وقد اهتم بالشكل الفني بقر اهتمامه بالمضمون ؛ ولذلك أعاب على أحمد منور أنَّ مضامينه لا ترقى فنيا إلى مستوى القضايا الإنسانية ، ومن خلال نقده لهذه المجموعة القصصية يتضح " أنّه قد اهتمَّ بالشَّكل ، وذلك بحكمه على أنَّ الكاتب أحمد منور لم يتخلَّص من ضبابية الرُّؤية وتسطُّحها وقصوره الفنِّي في أداة التبليغ ، بالرغم من الرُّؤية الصادقة للواقع الاجتماعي والإنساني " . 26

ج ـ الرؤية النقدية للأشكال القصصية القصيرة في الجزائر عند عبد الملك مرتاض :

أشار الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض إلى البدايات الأولى للقصة القصيرة في الجزائر ، وذلك في كتابه " فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931ـ1954) " مؤرخا لها بسنة 1925 من خلال قصة " فرانسوا والرشيد " لمحمد السعيد الزاهري ،هذه القصة التي نشرت في جريدة الجزائر سنة 1925 ، وقد كانت بداياتها عن طريق الاحتكاك والتفاعل بين الجزائر وبلدان المشرق العربي في مجال الأدب والفكر والثقافة ، من خلال البعثات العلمية والزيارات الدينية رغم التضييق الذي فرضه المستعمر .

من هذه الرحلات رحلات الجزائريين إلى المشرق مثل رحلة حمدان الونيسي ورحلة ابن باديس والإبراهيمي وأحمد رضا حوحو ، ورحلات المشارقة إلى الجزائر مثل رحلة محمد عبده وأحمد شوقي وجورج أبيض ، وفي ذلك يقول : " وإذا كان المشارقة

بحكم ظروف تاريخية ... استطاعوا أن يكونوا سبَّاقين إلى الاغتراف من ينبوع الثقافة العربية التراثية ، وحتى الثقافة الغربية العصرية ، فإنَّ المغاربة ومنهم الجزائريون كانوا أول الأمر في موقف الآخذ من الثقافة العربية المشرقية ، فعلى الرغم من وجود الكثير من الذين يتقنون العربية إلى جانب الفرنسية من الجزائريين ، فإنَّهم كانوا شديدي الحذر من الاغتراف من الثقافة الغربية ؛ فكانوا يلامسون متاعهم الروحي في الأدب العربي المشرقي على الرغم من أنَّه لا يعدو أن يكون قد استُمدَّ إمَّا من التراث العربي القديم أو التراث الغربي الحديث " . 26

يوظف مرتاض مصطلح " المحاولة القصصية " لجميع الأعمال القصصية التي عرفها الأدب الجزائري قبل الحرب العالمية الثانية ، والتي يتصدَّرها الزاهري والجلالي ـ حسب رأيه ـ وهذا من خلال قوله وهو يؤرِّخ لهذه الأعمال : " وقد أراد الزاهري من وراء هذه المحاولة القصصية ..." 27 ، أمَّا تلك الأعمال التي صدرت بعد الحرب فيصطلح عليها بالقصة الفنية ، وهذا ما يؤكد أنَّ الحديث عن قصة قصيرة مكتملة الخصائص الفنية في الجزائر قبل هذا التاريخ يعتبر أمرا غير مقبول ولا معقول ، وما يثبت هذا التصور ما أقرَّه عبد الله الركيبي في حديثه عن مراحل التطور التي مرَّ بها هذا الشكل القصصي حتى بلغ فنيته بعد الحرب العالمية الثانية وقيام الثورة التحريرية .

خاتمة :

من خلال هذه المحطات التي استوقفتنا عند القصة الجزائرية القصيرة ومحاولات التأصيل النقدي لها على يد ثلة معتبرة من النقاد الجزائريين ، يمكن أن نستخلص النتائج الآتية :

1 . أ نَّ القصة القصيرة في الجزائر كانت وليدة الحكايات الشعبية وقصص البطولة في الموروث الثقافي الجزائري . إضافة إلى احتكاكها بنظيرتها في بلاد المشرق العربي .

2ـ أنَّ القصة القصيرة الجزائرية قد ظهرت متأخرة مقارنة بالقصة القصيرة في بلاد المشرق العربي ، لاعتبارات كثيرة وظروف خاصة .

3 ـ أنَّ النقد الأدبي الذي رافقها في بداياتها الأولى كان بسيطا يفتقر إلى المكونات الفنية ، ويعبر عن آراء ذاتية تختلف من ناقد لآخر، إذ لم يستطيعوا الجزم في التأريخ الحقيقي لهذا الشكل القصصي ، ومع ذلك فقد حاول المتأخرون منهم تشكيل منهج نقدي واضح المعالم ساهم ولا يزال في توجيه الإبداع القصصي الفني نحو التميز إبداعا ونقدا.

4 ـ أنَّ الناقد عبد الله الركيبي استطاع أن يؤصل للأشكال القصصية القصيرة في الجزائر من خلال حديثه عن مراحل تطورها من مقال قصصي ذي طابع إصلاحي إلى صورة قصصية وصولا بها إلى قصة قصيرة فنية .

الهوامش والإ□الات :

1ـ عمار بن زايد : النقد الأدبي الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990 ، ص 7 .

2ـ محمد ساري : البحث عن النقد الأدبي الجديد ، دار الحداثة ، ط 1 ، الجزائر ، 1984 ، ص 64.

3 ـ عبد الله الركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث (1930ـ1974) ،الدار الغربية للكتاب ،(د.ط) ، ليبيا تونس ، 1978، ص 247.

4ـ أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث ، دار الرائد للكتاب ، ط 5 ، الجزائر 2007 ، ص 83

5ـ عبد الملك مرتاض : فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931ـ 1954) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط 1، الجزائر ،1983. ص 162ـ163.

6ـ عايدة أديب بامية : تطور الأدب القصصي الجزائري (1925ـ1967)، ترجمة محمد صقر ، ديوان المطبوعات الجامعية ،(د.ط) ، الجزائر ، 1982، ص 306

7ـ عبد الله الركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث ، مرجع سابق ، ص 162.

8ـ عبد الله الركيبي : القصة الجزائرية القصيرة ، الدار العربية للكتاب ، ط3 ، تونس ، ليبيا ، 1977 ، ص 10 .

9ـ عبد الله الركيبي : الأوراس ودراسات أخرى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، (د.ط) ،الجزائر ،1982 ، ص 144..
10 ـ صالح خرفي : صفحات من الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 1 ،الجزائر ،1972 ، ص211.
11ـ نوال بن صالح : الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية ، مجلة المخبر ؛ أبحاث في اللغة والأدب ، جامعة محمد خيضر ،بسكرة، الجزائر، عدد: 07 ، ص 220.
12 ـ مصطفى فاسي : القصة الجزائرية القصيرة ، مجلة الثقافة ، ص 199 .
13ـ عبد الملك مرتاض : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1951ـ1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 2 ، 1983 ، ص 120.
14ـ عمار مخلوف : مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ،(د.ط) سوريا ، 1998 ، ص 41.
15ـ حسين حسنين : تطور فن كتابة القصة القصيرة منذ محمد حسين هيكل رائد الرواية العربية إلى محمود تيمور رائد القصة القصيرة العربية ، 2007 ، ص 6
16 ـ عبد الله الركيبي : القصة الجزائرية القصيرة ، مرجع سابق ، ص 13 .
17ـ عبد الله الركيبي : تطور النثر الجزائري الحديث ، مرجع سابق ، ص 169.
18ـ عبد الله الركيبي : القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر ، دار الكتاب العربي ، (د.ط) ، القاهرة ، 1969 . ص 53 .
19ـ عبد الله الركيبي : القصة الجزائرية القصيرة ، مرجع سابق ، ص 13 .
20ـ عبد الله الركيبي : القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر ، مرجع سابق ، ص 139 .
21ـ عبد الله الركيبي : القصة الجزائرية القصيرة ، مرجع سابق ، ص 90.
22ـ محمد السعيد الزاهري : الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير (مجموعة قصصية) دار الكتب ،ط 3 ، الجزائر ،1983 ، ص 18.
23 ـ أحمد المديني : فن القصة القصيرة بالمغرب الأقصى في النشأة والتطور و الاتجاهات ، (د.ط) ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، (د.ت)، ص 35 .
24 ـ عمر بن قينة : دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ط) ، الجزائر ، 2009 ، ص 20.
25ـ حميدات مسكجوب : اتجاهات نقد القصة القصيرة في الجزائر ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ط) ، الجزائر ، 2011 ، ص 85.
26ـ عامر مخلوف : مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر ، مرجع سابق ، ص 43ـ44 ، نقلا عن كتاب : فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931ـ1954).
27ـ عبد الملك مرتاض : فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931ـ1954) ،مرجع سابق ، ص 52 .

المصادر والمراجع :

1ـ أبو القاسم سعد الله : ***دراسات في الأدب الجزائري الحديث*** ، دار الرائد للكتاب ، ط 5 ، الجزائر 2007 .
2 ـ أحمد المديني : ***فن القصة القصيرة بالمغرب الأقصى*** : في النشأة والتطور والاتجاهات ، دار العودة ، بيروت
3ـ حسين حسنين : ***تطور فن كتابة القصة القصيرة منذ محمد حسين هيكل رائد الرواية العربية إلى محمود تيمور رائد القصة القصيرة العربية*** ، ج 1، 2007 .
4ـ حميدات مسكجوب : ***اتجاهات نقد القصة القصيرة في الجزائر***، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009 .
5ـ صالح خرفي : ***صفحات من الجزائر*** : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 1 ،الجزائر ،1972
6ـ عايدة أديب بامية : ***تطور الأدب القصصي الجزائري*** (1925ـ1967)، ترجمة محمد صقر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 .

7ـ عبدالله الركيبي :
ـ ***تطور النثر الجزائري الحديث*** ، (1830ـ1974) ،الدار العربية للكتاب ،ليبيا ، تونس ، 1978 .
ـ ***القصة الجزائرية القصيرة*** ، الدار العربية للكتاب ، ط3 ، تونس ، ليبيا .
ـ ***القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر*** ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1969 .
ـ ***الأوراس ودراسات أخرى*** ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ،1982 .
8ـ عبد الملك مرتاض :
ـ ***فنون النثر الأدبي في الجزائر*** (1931ـ 1954) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط 1، الجزائر ،1983 .
ـ ***نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر*** (1951ـ1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ط 2 ، 1983 .
9ـ عمار بن زايد : ***النقد الأدبي الجزائري الحديث*** ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1990 .
10ـ عمار مخلوف : ***مظاهر التجديد في القصة القصيرة بالجزائر*** ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، سوريا ، 1998 .
11ـ عمر بن قينة : ***دراسات في القصة الجزائرية القصيرة والطويلة*** ، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2009
12ـ محمد السعيد الزاهري : ***الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير*** (مجموعة قصصية) دار الكتب ،ط 3 ،الجزائر ،1983 .
13ـ محمد ساري : ***البحث عن النقد الأدبي الجديد*** ، دار الحداثة ، ط 1 ، الجزائر ، 1984 .
14ـ مصطفى فاسي : ***القصة الجزائرية القصيرة*** ، مجلة الثقافة .1
15ـ نوال بن صالح : ***الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية*** ، مجلة المخبر ؛ أبحاث في اللغة والأدب ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، عدد: 07 .